فضيلة القناعة

الإسلام هو نظام للحياة الإنسانية الفاضلة المطمئنة، هو نظام لحياة الفرد والمجتمع معاً، أساسه النظرة إلى الإنسان على أنه طبيعة تشتهى، ولكن لها قيادة وتستجيب لدوافع الأنانية ولكن تميل إلى الاجتماع.

وتوجيه الإسلام للإنسان يقوم على تنبيه إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده.

إن الإسلام الحنيف دين يهتم بالروح كما يهتم بالجسد، دين يرنو إلى الغايات والقيم الفاضلة، ويتوخى بالمسلمين سلوك الحياة المثلى والعيش الرغد، ويرقى بهم إلى حياة الأمن، والإيمان، والاطمئنان، بعيدا عن المغريات وشهواتها المردية.

ولا ريب أن الحياة الطيبة فى عيشها وظلالها ومعاملاتها هى الحياة التى تزخر بالقناعة والرضا من الميسور من النعمة قليلها وكثيرها. وهذه الحياة يسعد بها المؤمنون بالله والذين هم بما فى يد الله أوثق مما فى أيديهم، ويقدرون النعمة حق قدرها، وحسبهم ذلك غناءً لنفوسهم وفطاماً لها عن الترسل فى الأمانى والتطلع إلى المشتهيات سواءٌ أقبلت عليهم فأسبغت عليهم خيرها أو أدبرت عنهم، فلم ينالوا منها إلا الكفاف.

وقَنِع - بكسر النون - بنفسه قنعاً وقناعة أى رضى بالقليل وفى الحديث «القناعة كنز لا ينفد»[1]، لأن الإنفاق منها لاينقطع كلما تعذر على الإنسان شىء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى.

وفى الحديث أيضا: «عز من قنع - بكسر النون - وذل من طمع» لأن القانع لا يذله الطلب فلا يزال عزيزا.

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٨ ص ٢٩٧.

وإذا كان هذا هو المعنى اللغوى للقناعة. فإننا نرى المعنى الشرعى واضحاً وذلك أن التاج الجامع للأُصول جاءَ فيه: أن القناعة هى الرضا بالميسور واليأس مما فى أيدى الناس توكلا على الله.

ويرى العلماءُ أن قناعة النفس هى أن تضع حداً لحاجتها أو لرغبتها مع القدرة على الاستمرار فى تلبية تلك الحاجة أو هذه الرغبة. ولكى يتصف الإنسان بصفة يجب أن يتوفر به أمران: الأمر الأول: استطاعته على تحقيق المزيد مما تشتهيه النفس، والأمر الثانى: قدرته على الوقوف عند حد معين فى سبيل ما تشتهيه النفس. بفعل الإرادة والعزم الصادقين.

والقناعة بهذا المعنى تقى الإنسان كثيراً من الزلل وتحفظ عليه كرامة الإنسان.

وفى كتاب «الإيمان والحياة» يذكر الدكتور القرضاوى: أن القناعة تعنى أمرين:

أولهما:

الاعتدال فى السعى للغنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن الدين التوازن فى نفس الإنسان وفى حياته ويمنحه السكينة التى هى سر السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن معاً، ومن ثم قال ﷺ: «يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب، وخذوا ما حل، ودعوا ما حرم»[1]. رواه ابن ماجه.

وثانى ما تعنيه القناعة:

أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفى حدود ما قُدِّر له، يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء فى غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتلهف.

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى «الإيمان والحياة» ص ١٤٥.

والقناعة من الأخلاق الإسلامية التى يحسن للمؤمن أن يتحلى ويتجمل بها.

ولذلك كان محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام من خير القانعين، غَنِىَّ النفس، راضياً بالرزق الكفاف.. وربما وكل المؤمن إلى ما عنده من القناعة التى تتحلى بها نفسه فلم يعطه، اطمئناناً على ما عنده من فيض الإيمان، وأعطى آخر لما يجد فيه من الفزع والجزع إن لم يعطه خوفاً على إيمانه.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس[1]»!

ومما يلاحظ فى هذا الحديث أن «لكن» جاءَت استدراكاً لدفع توهم أن كثرة العرض ينافى المحمود فدفعه، بقوله: «ولكن الغنى غنى النفس».

وجاءَ فى معنى الحديث، ليس حقيقة الغنى كثرة المال، فكثير من الموسع عليه فيه، لا ينتفع بما أُوتى، فكأنه فقير من شدة حرصه وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أُوتى وقنع به ورضى.

وقال القرطبى: وإنما كان الممدوح غنى النفس لأنها حينئذ تكف عن المطامع وتعظم ويحصل لها من الحظوة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذى يناله مع كونه فقير النفس لحرصه، فإنه يورطه فى رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءَة همته وبخله وحرصه. فيكثر من يلزمه من الناس فيصغر قدره عندهم.

والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما قسم الله له لايحرص على الازدياد لغير حاجة، ولايلح فى الطلب، ويرضى بما قسم له.

وغنى النفس إنما ينشأُ عن الرضا بقضاءِ الله تعالى والتسليم لأمره.

وإن ممارسة القناعة فى الحياة تضفى على صاحبها طبيعة غير متكلفة وتشعره بحلاوة هذه الخلة، فينطلق بمزايا القناعة.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج ٢ ص ٢٧٥ و ٢٧٦ والحديث متفق عليه.

ويقول ابن حازم:

للناس مال ولى مالان ما لهما ... إذا تحارس أهل المال إحراس

ما لى الرضا بالذات أصبحت أملكه ... وما لى اليأس مما يملك الناس

وسئل الحسن البصرى عن سر زهده فى الدنيا فقال: «أربعة أشياء: علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبى، وعلمت أن عملى لايقوم به غيرى فاشتغلت به، وعلمت أن الله مطلع على فكرهت أن يرانى على معصية.. وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله»..

وجاءَ فى عيون الأخبار لابن قتيبة أن بشار بن بشر قال:

وإنى لعف عن فكاهة جارتى ... وإنى لمشنوءٍ إلى اغتيابها

إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها ... زءوراً ولم تأنس إلىَّ كلابُها

ولم أك طلاباً أحاديث سرها ... ولا عالماً من أى حوك ثيابها

وإنى قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها

إذا سد باب عنك من دون حاجة ... فذرها لأخرى لين لها بابها

والإنسان الفاضل هو الذى يسعى إلى الأعمال الصالحة، ويشغل بها لسانه فى الذكر والقول الصالح بين الناس، ويشغل بها جوارحه فى العبادة والقصد والأخذ والعطاء ويشغل بها عقله بالتفكير الناتج من خالص الإيمان بالله والرضا بالقدر خيره وشره، وبذلك يتأثر وجدانه بالرضا والقناعة ومن ثم يعيش الحياة الطيبة التى تفيض بالقبول والسمو.

وكان لابد من توجيهات الإسلام، لتؤدى دورها فى المجتمع الإسلامى، لأن الإنسان لو ترك يستسلم لنزعات الحرص والطمع، لأصبح خطراً على المجتمع، وعلى الإنسانية وعلى الكون. قال تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه: ١٣١].

ووظيفة الإيمان : أن يحد من سَوْرة الحرص والطمع وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية، فلا تستبد بها، وتجعلها فى قلق دائم، لا تكتفى بقليل ولاتشبع من كثير، ولا يطغى ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولايشبعها الحلال، فيسيل لعابها إلى الحرام، ومن ثم يوجه الإيمان النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحى الذى لايموت.

والأفراد والأُمم والجماعات الإنسانية فى أشد الحاجة إلى القناعة لتستروح النفوس نسمات الحياة، وترضى بما قسم الله، وبهذا تعيش المجتمعات فى منأى عن القلق والحرص والطمع والجشع والحسد.

يقول الأصمعى: أبرع بيت قالته العرب بيت أبى ذؤيب الهذلى:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

فالإسلام هو رسالة الله لتوجيه الإنسان كطبيعة أعدها الله على خلق خالص وميزها على سواها مما خلق: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1].

والإنسان فى الإسلام هو الذى ارتقى إلى أسمى صور الإنسانية، حيث لا تتحكم فيه شهوة المال والفرح، وهو الذى خشى ربه، وآمن بجزائه، وعبد ربه دون انقطاع ، وأُعطى دون أن يسأل، وحفظ حرمة الغير سراً وعلانية، وأوفى بعهده إن عاهد، وصان الأمانة وأدى الشهادة ، وكلما كان الإنسان مهذباً كلما كان مقدراً للروح الإنسانية وعارفاً لمنزلتها. ومن ثم لا ينزل بها الهون، بل يسعى فى استمرار إلى وضعها الوضع المقدر لها.

* * *

(١) الإسراء: ٧٠.